الأب بيير جورجو جانتسا

الرحمة الإلهيّة

من الله الرحيم إلى البشر الرحماء

سلسلة "باب الإيمان"

الحياة الروحية

١) صلوات العائلة المسيحية
٢) في رحاب الله
٣) حبّك نارٌ آكلة...
٤) الفرح الكامل: التكريس الرهباني طريقٌ للفرح
٥) كلامك، يا ربّ، روح وحياة: أصداء الكلمة
٦) رياضة روحية (١) : المبدأ والأساس
٧) رياضة روحية (٢) : المرض والشفاء
٨) رياضة روحية (٣) : الخطيئة والغُفران
٩) رياضة روحية (٤) : سر التجسُّد – زمن المجيء والميلاد
١٠) رياضة روحية (٥) : دعوة لإتباع يسوع
١١) رياضة روحية (٦) : حبٌّ حتى الموت – آلام وموت يسوع
١٢) رياضة روحية (٧) : "لقد قام" – الحياة أقوى من الموت
١٣) البراءة البابوية "وجه الرحمة"
١٤) الرحمة الإلهية: من الله الرحيم إلى البشر الرحماء
١٥) تأملات في الرحمة
١٦) تأمل في لوحة رمبراندت "الابن الضالّ"
١٧) لوحة "الابن الضالّ"

منشورات مكتبة يسوع الملك
بيت ساحور

مطبعة البطريركية اللاتينية – القدس
بيت جالا – تشرين الثاني ٢٠١٥

البراءة "وجه الرحمة"
الرحمة في قلب اللاهوت

إنّ براءة "وجه الرحمة"، التي أصدرها البابا فرنسيس في الحادي عشر من نيسان ٢٠١٥، عشية الأحد الثاني من الزمن الفصحيّ المعروف بأحد "الرحمة الإلهية"، والتي أعلن فيها يوبيل السنة المقدّسة، تسلّط الضوء على جانب جوهريّ من جوانب الرؤية المسيحيّة لله، وبالتالي على جانب أساسيّ من حياة تلاميذ المسيح. إنّ جميع سنوات اليوبيل، بحدّ ذاتها، تعيشها الكنيسة من زاوية الرحمة الإلهيّة وتدعو فيها إلى ممارسة الرحمة البشريّة. فهي كلّها تذكّرنا بالمصالحة والاهتداء، وبالتوبة ومغفرة الخطايا، وبالصفح والفرح المُستعاد. ومع ذلك، إذا استرجعنا تاريخ يوبيلات الكنيسة الثلاثين، التي بدأها البابا بونيفاسيوس الثامن عام ١٣٠٠، بما فيها اليوبيلات العاديّة والاستثنائيّة، وإذا ما قرأنا عناوين البراءات التي أصدرها البابوات في مثل هذه المناسبات، لا نجد واحدة منها تتضمّن كلمة "الرحمة" صراحةً. من الواضح أنّ جميع اليوبيلات تهدف إلى الحصول على رحمة الله ورأفته، كما أنّها تشكّل حافزًا لعيش الرحمة تجاه القريب، ولكنّ براءة

البابا فرنسيس وحدَها تحمل في عنوانها كلمة "الرحمة"، وهي أسمى صفات الله.

من ناحية أخرى، عندما نستعرض تاريخ كلّ يوبيل على حدة، نجد أنّ العديد من البابوات وضعوا أهدافًا مُحدَّدة لسنة اليوبيل. فإذا توقّفنا عند يوبيلات القرن العشرين فحسب، وهي ثمانية (١٩٠٠، ١٩٢٥، ١٩٣٣، ١٩٥٠، ١٩٦٦، ١٩٧٥، ١٩٨٣، ٢٠٠٠)، نلاحظ أنّ البابوات، في حينه، أرادوا أن يركّزوا على هذا الهدف الخاصّ أو ذاك أو على أكثر من هدف. فقد وضع البابا ليون الثالث عشر ليوبيل عام ١٩٠٠ هدف إحياء الإيمان لدى الشعب المسيحي؛ والبابا بيوس الحادي عشر، طلب من المؤمنين، في يوبيل عام ١٩٢٥، أن يصلّوا من أجل الإرساليات والسلام بين الشعوب؛ وفي يوبيل عام ١٩٥٠، حدّد البابا بيوس الثاني عشر عدّة أهداف: تقديس النفوس، والأمانة للمسيح والكنيسة، والسلام في الأماكن المقدسة وحمايتها، والدفاع عن الكنيسة في وجه خصومها، وهبة الإيمان للضّالين وغير المؤمنين، وتطبيق العدالة الاجتماعية. والبابا بولس السادس، الذي أعلن يوبيلين (في عامَي ١٩٦٦ و ١٩٧٥)، فقد وضع لهما هدف "التجدّد" و"المصالحة". وأخيرًا، دعا البابا يوحنا بولس الثاني المؤمنين، في يوبيلَي العامين ١٩٨٣ و٢٠٠٠، إلى التأمّل في سرّ الفداء وعيشه.

أمّا البابا الحالي، فقد وضع الرحمةَ هدفًا أساسيّا لسنة اليوبيل هذه (٢٠١٥/٢٠١٦)، وقدّم لنا في براءته "وجه الرحمة" رسالةً بابويّة مصغَّرة حول حبّ الله الرحيم، وبهذا فإنّه ينقلنا إلى قلب اللاهوت. وإذا أردنا شهادة على أنّنا هنا في قلب اللاهوت، فإنّنا نجدها في (التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية)، والتي يجب أن نلمّ بجميع عناصرها: "سّر الثالوث القدوس هو السرّ المركزيّ في الإيمان وفي الحياة المسيحيّة. إنّه سرّ الله في ذاته. وهو من ثمّ أصل سائر أسرار الإيمان، والنور الذي ينيرها. إنّه العقيدة الأساسيّة والجوهريّة الأكثر أهميّة في "هرميّة حقائق الإيمان". ليس تاريخ الخلاص كلّه سوى تاريخ الطريقة والوسائل التي اعتمدها الله الحقّ والواحد، الآب والابن والروح القدس، ليكشف عن ذاته ويتصالح هو والبشر الذين يتحوّلون عن الخطيئة، ويضمّهم إليه" (بند ٢٣٤).

إنّ الجملة الأخيرة لهذا النصّ تقدّم لنا المفتاح الذي يتيح لنا أن نضع رحمة الله، أو بالأحرى، الله الرحيم، في قلب اللاهوت. إنّ إله المسيحيين، الذي أوحى به السيّد المسيح، هو الله "الآب والابن والروح القدس" (متى ٢٨: ١٩). والله الثالوث هو الله الحبّ، لأنّ "الله محبّة" (١ يوحنا ٤: ٨. ١٦). عندما يقول لنا يسوع :"كونوا رحماء كما أنّ أباكم السماويّ رحيم" (لوقا

٦: ٣٦)، لا يؤكّد أنّ اللهَ مثالُ الرحمة فحسب، بل أنّه أيضًا ينبوع الرحمة، لا بل جوهر الرحمة والرحمة نفسها. إنّ الله رحيم، لأنّه رحمة؛ وكذلك، فإنّ الابن رحيم، لأنّه يقبل حبّ الله الرحيم، إذ يقول إنّ "جميع ما هو للآب فهو لي" (يوحنا ١٦: ١٥)؛ وأيضا الروح القدس رحيم، إذ يقول عنه السيّد المسيح "إنّه يأخذ ممّا لي ويخبركم به" (يوحنا ١٦: ١٥). وبالتالي، فإنّ التأكيد بأنّ الله **لديه** الرحمة يتأسّس على أنّ الله **هو** الرحمة بحدّ ذاته.

ويعبّر البابا فرنسيس عن كلّ ذلك بجملة بسيطة بقدر ما هي عميقة: "الرحمة: هي كلمة تُظهر سرّ الثالوث الأقدس" (رقم ٢). وأيضا القديسة الصوفيّة الأخت فوستينا كوفالسكا، التي يستشهد بها البابا، تقول الشيء نفسه في يومياتها، في صلاة توجّهها إلى الله قائلة: "كلّ شيء يبدأ برحمتك، وينتهي برحمتك. إنّ كلّ نعمة تشتقّ من الرحمة والساعة الأخيرة حافلة بالرحمة لنا". ويسوع بدوره يتوجّه إليها قائلا: "كلّ ما في الوجود قد خرج من أحشاء رحمتي... يا بنيّتي، أعلني أنّي الحبّ والرحمة بالذات".

وكلّ هذا يدعونا للنظر إلى الرحمة لا "من أسفل"، أي من منطلق الخبرة البشرية للرحمة، وهي متقلّبة، وغير ثابتة، ومحدودة، ومتضاربة، بل من الضروري أن ننطلق "من علُ"،

أي من سرّ الحياة الكاملة والشاملة لله الواحد والثالوث، وهو سرّ غير متناهٍ ولا يُسبر غوره. إنّ الحياة الثالوثيّة هي حياة حبّ غير محدود، وهو حبّ متبادل يسري بين الآب والابن والروح القدس. إنّه الحبّ الرحيم، لأنّ كلّ أقنوم إلهيّ ينحني على الآخر ويهب له ذاته بتعاطف وحنان لا مثيل لهما. إنّ الآب هو الحبّ الرحيم الذي يضحّي، والابن هو الحبّ الرحيم الذي يقدّم نفسه ضحيّة، والروح القدس هو الحبّ الرحيم المقبول والمتقاسَم. يعبّر لاهوتي من الكنيسة الروسية الأورثوذكسية في القرن التاسع عشر، وهو القديس فيلاريتا، ميتربوليت موسكو (١٧٨٣–١٨٦٧)، عن هذه الحقيقة بكلمات سامية قالها في إحدى عظاته يوم الجمعة العظيمة: "إنّه حبّ الآب الذي يَصلِب، وحبّ الابن المصلوب، وحبّ الروح القدس الذي ينتصر بقوة الصليب الذي لا يُقهر".

"إن محبّة الله أُفيضت في قلوبنا"

(رومة ٥: ٥)

لقد أراد الله، من فيض حبّه اللآمتناهي، ألا تكون حياته الثالوثيّة وهذا النموذج الثالوثيّ امتيازًا حصريًّا له (راجع فيلبي ٢: ٦) وكنزا يغار على الاحتفاظ به لنفسه، بل أراد أن تفيض هذه الحياة على العالم. وقد حقّق مشروع هذا الحبّ الإلهيّ، أولًا بالخلق في بداية الأزمنة (راجع تكوين فصل ١ و٢)، ومن ثمّ من خلال الخلق الجديد في يسوع المسيح في ملء الأزمنة (راجع غلاطية ٤: ٤-٧). إنّ هذا المخطّط الإلهي وفق "ما ارتضته مشيئته" (أفسس ١: ٥)، وحركة الحبّ هذه التي حملت المسيح على أن يتجرّد "من ذاته متّخذًا صورة العبد" (فيلبي ٢: ٧)، هو ما يحتفل به القديس بولس بشكل رائع في رسائله، خصوصًا في تلك الأناشيد الليتورجيّة التي كانت تتداولها الجماعات المسيحيّة الأولى (راجع أفسس ١: ٣-١٤؛ فيلبي ٢: ٥-١١). ويؤكّد القديس بولس نفسه بكلمات رائعة وباندهاش وعرفان جميل أنّ "محبّة الله أُفيضت في قلوبنا بالروح القدس الذي وُهب لنا" (رومة ٥: ٥). وكذلك، يؤكّد القديس بطرس نفس الحقيقة اللاهوتيّة عندما يقول: "تبارك الله أبو ربّنا يسوع المسيح، شملنا بوافر رحمته فولدنا ثانية لرجاء

حيّ بقيامة يسوع المسيح من بين الأموات، ولميراث غير قابل للفساد والرجاسة والذبول" (١ بطرس ١: ٣-٤). إنّها كلمات ساطعة الوضوح وتقول كيف أن الله-الحبّ لم يظلّ منغلقًا على سعادته، بل أعطي بغير حساب وأفاض على البشريّة حياته بالذات، وحبّه، وروحه.

إنّ حبّ الله الرحيم يفيض هكذا على كلّ خلائقه، الحيّة وغير الحيّة، وكلّها تمجّد الله بوجودها نفسه وتحمد اسمه، لأنّه "صالح"، ولأنّ "للأبد رحمته" (مزمور ١٣٦: ١). إنّ هذه اللازمة، "أنّه صالح فإنّ إلى الأبد رحمته"، تتكرّر في الآيات الست والعشرين لهذا المزمور الطويل. ويأتي هذا التكرار للتأكيد على أنّ كلّ كائن حيّ وكلّ عمل يقوم به الله لخير الخليقة جمعاء ولخير شعبه، هو هبة من رحمته وحبّه وأمانته. ويسوع المسيح، ابن الله، حمَلَ تدبير الحبّ هذا وتدبير الخلاص الشامل إلى ملئه. في يسوع المسيح، جميعُ الشعوب تصبح شعبه، وكلّها مدعوّة إلى أن تكون "من أبناء وطن القديسين ومن أهل بيت الله" (أفسس ٢: ١٩).

ولكنّ الإنسان، مع الأسف، باختيار إرادته الحرّة، الذي دفعته إليه الكبرياء والأنانية، وبسبب تجربة الشيطان الغدّار (راجع تكوين ٣: ١-٧)، و"أبو الكذب" (يوحنا ٨: ٤٤)، لم يكن دائمًا أمينًا على حبّ الله له، لا بل خانه. فقد دفعته كبرياؤه

وانجذابه إلى سعادة الخطيئة المزيّفة إلى رفض يد الله الرحيمة. ولكن، هل ترك الله بدوره الانسان و لم يتعامل معه برحمة؟ إنّ الله ليس كالإنسان الذي يغفر بصعوبة وحتّى أنّه لا يغفر في بعض الأحيان. فهو يعرب دائما وصراحةً عن استعداده الكامل والدائم للمغفرة والرحمة: "قد انقلب فيّ فؤادي واضطرمتْ أحشائي... لأنّي أنا الله لا إنسان والقدّوس في وسطك فلن آتي ساخطًا" (هوشع ١١: ٨-٩). وهذا ما تعبّر عنه الصلاة الافخارستية الرابعة في الليتورجيا اللاتينية أحسن تعبير عندما تقول: "ولمّا فقَدَ مودّتك بعصيانه، لم تدعْه في قَبضة الموت، بل بادرتَ بني البشر برحمتك، وجعلتهم يبحثون عنك ويجدونك". ويعبّر القديس بولس عن هذا السرّ العظيم للرحمة الإلهية الشاملة بتأكيده في هذه الآية الحادّة: "إنّ الله أغلق على جميع الناس في العصيان ليرحمهم جميعًا" (رومة ١١: ٣٢).

الكتاب المقدس
هو قصّة حبّ الله الرحيم

إنّ حبّ الله الرحيم يرافق البشر منذ ظهور الإنسان على الأرض، ولا يتخلّى عنه أبدا: هذه هي الحقيقة التي تخترق جميع أسفار الكتاب المقدس، لا بل جميع صفحاته. ولو أنّ كلمة "رحمة" لا تظهر دائمًا بصريح العبارة، فإنّ مضمون التدخّل الإلهي وطرقه كلّها تشتمل الرحمة، والرأفة، والعناية بالإنسان.

ليس من الـمُستغرَب، إذًا، أن تظهر كلمة الرحمة في الكتاب المقدس فقط في الفصل التاسع عشر من سفر التكوين، وذلك عندما يشكر لوط الربّ لأنّه أراد خلاصه من دمار سدوم وعمورة، ويقول له: "إنّ عبدك نال حظوة في عينيك، وعظمت رحمتك التي صنعتها إليّ بإبقائك على حياتي" (تكوين ١٩: ١٩). قبل أن يستعمل الكتاب المقدّس لفظة "رحمة"، فإنّ واقع هذه الرحمة يرافق الإنسان والخلائق منذ بدء الخليقة. لقد أظهر الله رحمته مع آدم وحواء وكلّ ذريتهما، مرورا بنوح، وابراهيم، وموسى، إذ جدّد عهده معهم، ومن ثمّ مع جميع الأنبياء. أمّا العهد النهائيّ والأبديّ، فقد تمّ في يسوع المسيح،

الرحمة التي أصبحت بشرًا. يقول زكريا في نشيده: "تبارك الربّ": "تلك رحمة من حنان إلهنا بها افتقدنا الشارق من العُلى" (لوقا ١: ٧٨). وفي سياق الوحي، يعلن الله اسمه ثلاث مرات، وكلّ مرّة بإيضاحات مختلفة. في المرّة الأولى، يقول: "أنا هو مَن هو" (خروج ٣: ١٤). بهذه الآية الحافلة بالمعاني، يوحي الله بكيانه؛ وفي المرّة الثانية، يطبّق الله على نفسه كلمة "رحمة"، عندما يقول لموسى: "وأصفح عمّن أصفح وأرحم من أرحم" (خروج ٣٣: ١٩). بهذه الكلمات، يوحي الله أنّ كيانه كلّه هو نعمة ورحمة. بالنسبة إلى الله، أن يكون الله حقًّا معناه أن يمنح النعمة ويتعامل برحمة. وهذا ما يؤكّد عليه وحي الله لاسمه بشكل صريح؛ وفي المرّة الثالثة، عندما ظهر لموسى، "مرّ الربّ قدامه فنادى: الربّ الربّ! إله رحيم ورؤوف، طويل الأناة كثير الرحمة والوفاء. يحفظ الرحمة لألوف، ويحتمل الإثم والمعصية والخطيئة، ولكنّه لا يترك دون عقاب شيئًا" (خروج ٣٤: ٦-٧). مع هذه الصفات، يصف الله هويته وتعامله مع بني البشر. إنّ الشعب يتعلّم هذه الكلمات ويردّدها في صلواته الشخصيّة والجماعيّة.

لهذا، فإنّ العديد من المزامير، التي تعكس الصلاة الشعبيّة، تردّد نفس الكلمات التي أُوحيت إلى موسى على جبل سيناء والتي تنشد رحمة الله. نعم، "الربّ رؤوف رحيم طويل الأناة

كثير الرحمة" (مزمور ١٠٣: ٨؛ وأيضا المزمور ٨٦: ١٥؛ ١١٦: ٥؛ ١٤٥: ٨). وبين جميع هذه المزامير، يبرز المزمور ١٣٦، الذي ذكرناه آنفًا. أمام كلّ تدخّل إلهيّ في تاريخ البشر وبنوع خاصّ في تاريخ شعبه، يتمّ الترنّم برحمته عن طريق هذه اللازمة: "لأنّ إلى الأبد رحمته". وهذه الكلمات الغنية والكثيفة تعبّر في الوقت عينه عن الأمانة، والصلاح، والنعمة، والحنان، والعون، والرأفة، والسخاء... وكلّها جوانب من الرحمة وعلامة لها.

وعندما نصل إلى كتب الأنبياء، الكبار منهم والصغار، فإنّنا نجد قمّة وصف العهد القديم للرحمة الإلهية في هوشع النبي. إنّ أحداث حياة النبي نفسها تبيّن، بشكل من الأشكال، سرّ مخطط الله وحبّه الرحيم. ففي حياته الزوجية، عاش هوشع النبي وضعًا مأساويًا. فهو أحبّ زوجته وظلّ يحبّها، مع أنّها خانته. هكذا، الله–الزوج يحبّ دائما شعبه، ولو أنّه تصرّف كما تتصرّف الزوجة الخائنة. ليس الله كالإنسان، الذي لا يميل إلى المغفرة ولا يغفر في كثير من الأحيان. فهو يعرب عن استعداده الكامل والدائم للرحمة والمغفرة ويقول لشعبه: "كيف أهجرك يا أفرائيم؟... قد انقلب فيّ فؤادي واضطرمت أحشائي... إنّي أنا الله لا إنسان، إنّي القدوس في وسطك فلن آتي ساخطًا" (هوشع ١١: ٨-٩). وهذه هي الخاتمة الرائعة لحبّ الله الرحيم: "وأخطبك لي للأبد، أخطبك بالبرّ والحق والرأفة

والمراحم وأخطبك لي بالأمانة، فتعرفين الربّ" (هوشع ٢: ٢١-٢٢).

وباختصار، فإذا ما توقّفنا عند العهد القديم، فإنّ جميع أسفاره تبيّن بوضوح أنّ الله هو إله الحبّ والرحمة، إله قريب من أبنائه البشر. إنّ شدّة غضبه على الخطيئة والخاطئ نفسها، وعقابه للشرور التي يقترفها البشر، تذكّران بحبّه الرحيم والرؤوف، لخير الخاطئ وتوبته. كما أنّ الكتب التاريخية والكتب الحكمية، تقدّم لنا أمثلة لا حصر لها لرحمة الله، من خلال التعاليم وبشكل خاصّ من خلال أحداث ملموسة. وهذه الشهادات سواء أكانت فرديّة أو جماعيّة تتعلّق بشعب الله وبكلّ شعوب الأرض، لأنّ "رحمة الإنسان لقريبه، أمّا رحمة الربّ لكلّ ذي جسد" (يشوع بن سيراخ ١٨: ١٣).

بدل الاستشهاد بجميع النصوص التي يأتي فيها ذكر الرحمة، سوف نلتقط دقائق المعاني التي تنطوي عليها هذه الكلمة. وهذه المعاني تبرز من خلال السياقات التي تبيّن موقف الله من الإنسان الذي يتوسّل إليه. وفي هذا المجال، نرى أنّ الله رحيم، لكونه أبًا لشعبه وبالتالي يتصرّف معه بحبّ لأنّه ابنه (راجع خروج ٤: ٢٢). إنّه يرى بؤسه ويسمع صراخه وينزل لتحريره (راجع خروج ٣: ٧-٨). إنّه الله الرحيم، لأنّه يغفر لشعبه ولكلّ مؤمن يتوب عن خطيئته ويعود إليه (مزمور ١٠٣: ٣-٤).

إنّ الله رحيم، لأنه يخلّص من الشرّ الماديّ ومن الشرّ الأخلاقيّ، ويخلّص المصابين بالاضطرابات ويحلّ قيود الخطأة (راجع مزمور ١٤٦: ٧-٩). ولهذا، فإنّه "لا يشدّد غضبه للأبد لأنّه يحبّ الرحمة. سيعود فيرأف بنا ويدوس آثامنا" (ميخا ٧: ١٨-١٩).

ومن الطبيعي أن نتساءل: ولكن أليس الله أيضا الديّان الأعلى وكلّيّ العدل؟... هذا صحيح، ولهذا، فإنّه يدعو الخطيئة خيانة لحبّه وعهده، ويطبّق العدل بأشكال متعدّدة: تنبيه الخاطئ، الإنذار بالويلات، العقوبات، الدعوة إلى الاهتداء، المغفرة. ولكنّه يطبّق كلّ هذا من منطلق الحبّ والرحمه: "حيّ أنا، يقول السيّد الربّ، ليس هواي أن يموت الشرير، بل أن يرجع عن طريقه ويحيا" (حزقيال ٣٣: ١١). وفي هذا الصدد، يلاحظ البابا القديس يوحنا بولس الثاني في رسالته "في الرحمة الإلهية": "تتجلّى أولويّة المحبّة وسموّها بالنسبة إلى العدالة وتقدّمها عليها (وهذا ما يميّز الوحي كلّه) في الرحمة، تمام التجلّي... فالرحمة إذن تختلف عن العدالة لكنّها لا تضادّها" (رقم ٤). وفي هذا الاتجاه، يقول البابا فرنسيس، وهو يتأمّل في الحبّ الرحيم الذي يتجلّى في موقف يسوع المسيح من الخطأة: "يصبح بِرُّ الله الآن التحرّر بالنسبة للمثقلين بعبودية الخطيئة وكلّ تبعاتها. إن بِرّ الله هو مغفرته (راجع مزمور ٥١: ١١-١٦)" (رقم ٢٠).

وفي هذا الإطار، يندرج ما يتطلّبه الله من الانسان في منطق ما قاله الله في الخلق: "لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا" (تكوين ١: ٢٦). وهذا يعني أنّ الإنسان، على مثال الله الرحيم دائما تجاه الإنسان، عليه أن يكون رحيمًا تجاه شبيهه. ولهذا، فإنّ الله يربط بين محبة الله ومحبة القريب. فالوصية الأولى هي: "أحبب الربّ إلهك بكلّ قلبك وكلّ نفسك وكلّ قوتك" (تثنية الاشتراع ٦: ٥)؛ والثانية: "أحبب قريبك حبّك لنفسك" (الأحبار ١٩: ١٨). وبدقّة أكثر، يطلب الله من الإنسان أن يتشبّه به: "كونوا قدّيسين لأنّي أنا قدّوس" (الأحبار ١١: ٤٥).

ويذكّر يسوع نفسه، في الشريعة الجديدة، بهذه الوصايا، ويؤكّد أنّها خلاصة الشريعة والأنبياء (راجع متى ٢٢: ٣٧–٤٠). ولأنّ آدم وكلّ ذريته لم يستطيعوا عيش هذه الصورة الإلهية فيهم، بسبب ضعفهم وخطيئتهم، فإنّ الله، عند ملء الأزمنة، أرسل ابنه الوحيد كي يظهر من خلاله "شعاع مجده وصورة جوهره" (إلى العبرانيين ١: ٣)، والصورة الحيّة لحبّه الرحيم، والنموذج الكامل لهذا الحبّ تجاه الله وتجاه البشر.

يسوع هو وجه الآب الرحيم ومعلّم الرحمة ونموذجها

حملت براءة البابا فرنسيس، التي يعلن فيها السنة اليوبيليّة الاستثنائيّة، عنوان "وجه الرحمة". نعم، يسوع هو الوجه المرئي للآب غير المنظور: "بتثبيت النظر على يسوع وعلى وجهه الرحيم، يمكننا أن نفهم محبّة الثالوث الأقدس" (رقم ٨). "الله محبّة" (١ يوحنا ٤: ٨. ١٦). الله حبّ رحيم، الله رحمة، و"الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو الذي أخبر عنه" (يوحنا ١: ١٨). بما أنّ يسوع هو "صورة الآب غير المنظور" (قولسي ١: ١٥)، فإنّه يجيب – وبحقّ – على سؤال فيلبس "يا ربّ، أرنا الآب"، بقوله: "من رآني رأى الآب" (يوحنا ١٤: ٩). وهذا ما جعل القديس بولس، ومعه الجماعة المسيحية الأولى بأسرها، يقف ساجدًا ويتأمّل، بكلّ مشاعر الشكر، في مخطّط حبّ الله الذي لا يُسبر غوره: "فلمّا ظهر لطف الله مخلّصنا ومحبّته للبشر، لم ينظر إلى أعمال برّ عملناها نحن، بل على قدر رحمته خلّصنا بغسل الميلاد الثاني والتجديد في الروح القدس" (طيطس ٣: ٤–٥).

ليس يسوع مجرّد رؤيا سماوية لله، كتلك الرؤيا التي ظهر فيها للآباء في العهد القديم؛ وليس مجرّد الصوت غير المرئيّ

للآب كما كان الحال مع أنبياء العهد القديم؛ وهو ليس فقط يد الله القادر على كلّ شيء التي تصنع العجائب من خلال الأنبياء والقدّيسين. إنّ يسوع، بالأحرى، هو صلاح الله المتجسّد، إنّه رحمته التي أصبحت بشرًا، وبالتالي فهي مرئية وملموسة، لتشفي، وتعزّي، وتغفر للضعفاء والخطأة. إنّه الله الرحيم الذي أصبح واحدًا منّا، لأنّ "الكلمة صار بشرًا وسكن بيننا" (يوحنا ١: ١٤). "كلّ شيء فيه يحدّث عن الرحمة. ولا شيء فيه خال من الرأفة" (رقم ٨). إنّنا نجد أروع تعبير عن هذه الحقيقة السامية في مقطع من الرسالة إلى العبرانيين: "فلمّا كان الأبناء شركاء في الدم واللحم، شاركهم هو أيضا مشاركة تامّة... لكي يحرّر الذين ظلّوا طوال حياتهم في العبودية... فحقّ عليه أن يكون مشابهًا لإخوته في كلّ شيء، ليكون عظيم كهنة رحيمًا مؤتَمنا عند الله فيكفّر خطايا الشعب" (إلى العبرانيين ٢: ١٤-١٧). وتحقيقًا لخلاصه لنا نحن إخوته، فقد أظهر يسوع، طيلة حياته الأرضية، رحمة الآب بالقول والعمل والمعجزات. ومنذ بداية حياته العلنيّة، طبّق على نفسه في مجمع الناصرة كلمات أشعيا: "روح الربّ عليّ،... وأرسلني... لأعلن سنة رضا عند الربّ" (لوقا ٤: ١٨-١٩).

يظهر يسوعُ حبّ الله الرحيم قبل كلّ شيء بتعليمه، الذي لخّصه في التطويبات الإنجيليّة، التي تشكّل الصورة الذاتية ليسوع، والذي هو، بدوره، صورة الآب غير المنظور. وفي

قلب التطويبات، تتجلّى التطويبة الرابعة التي تقول: "طوبى للرحماء، فإنّهم يُرحمون" (متى ٥: ٧). وهنا يمكن أن نقارن هذه التطويبة مع غيرها (راجع متى ٥: ٣-١٢). إذا اعتبرنا أنّ كلّ تطويبة تُقسم إلى قسمين، الأول يشير إلى الجماعة التي يُقال عنها "طوبى"، والثاني إلى سبب هذه السعادة. ومن الملاحظ هنا أنّ مكافأة تطويبة الرحماء وحدَها هي الرحمة نفسها. بينما تشير باقي التطويبات إلى مكافأة مقابلة (الفقراء يرثون الأرض، المحزونون يُعزون، الجياع والعطاش يشبعون، ألخ)، فإنّ تطويبة الرحمة تعد بالرحمة عينها. فالذي يعيش الرحمة، يحصل على رحمة الله. ومن لا يعيشها، لا يحصل عليها. فالرحماء يعيشون، منذ الآن، حياة الله بالذات، وهي رحمة.

وهذا ما يؤكّد عليه القديس يعقوب، عندما يقول في رسالته: "لأنّ الدينونة لا رحمة فيها لمن لم يرحم، فالرحمة تستخفّ بالدينونة" (يعقوب ٢: ١٣). بهذه التعابير، لا يقوم يعقوب الرسول إلا باستعادة تعليم يسوع نفسه، عندما تحدّث عن الدينونة الأخيرة. فلمَن عاشوا الرحمة، يقول الديّان العادل والرحيم: "تعالوا يا مَن باركهم أبي" (متى ٢٥: ٣٤)، بينما يقول لمن لم يمارسوا الرحمة: "إليكم عنّي يا ملاعين" (متى ٢٥: ٤١). إنّ تلاميذ المسيح، الذين يتشبّهون برحمة الآب، سيتمتّعون بالرحمة الأبدية. فما عليهم، إذًا، إلا التشبّه بالآب، الذي يحبّ الجميع ويصنع الخير للجميع، هو الذي "يطلع شمسه على

الأشرار والأخيار ويُنزل المطر على الأبرار والفجّار" (متى ٥: ٤٥).

يصل هذا التعليم إلى قمة سموّه في قول المعلّم الإلهي: "كونوا رحماء كما أنّ اباكم السماوي رحيم" (لوقا ٦: ٣٦). أمّا الأمثلة الثلاثة، التي يعرفها التقليد المسيحي باسم "أمثال الرحمة"، أي الخروف الضال، والدرهم المفقود، والابن الضالّ (راجع لوقا ١٥: ١-٣٢)، وكذلك مثل الملك والعبد (راجع متى ١٨: ٢٣-٣٥)، فإنّها تعلّم أنّ تلميذ يسوع الأمين مدعوّ إلى أن يتّخذ نموذجه من رحمة الآب السماوي. هي وحدَها تجذب إلى التوبة، وهي وحدَها تمنح "الفرح في السماء" وأمام "ملائكة الله" (لوقا ١٥: ٧. ١٠). هي وحدَها تفتح أبواب السماء.

في هذه الحالة، يمكن أن يتساءل المرء: لماذا يستعمل السيّد المسيح في الأناجيل كلمات تبدو قاسية وتنمّ عن قلّة رحمة. على سبيل المثال، تأنيبه الشديد لبطرس: "انسحبْ! ورائي! يا شيطان، فأنت لي حجر عثرة" (متى ١٦: ٢٣)، وكذلك الكلمات الحادّة لبعض فئات الفريسيّين والكتبة، التي تبدأ بكلمة "الويل لكم..." (متى ٢٣: ١٣-٢٩)، وبعض الألقاب التي تبدو لنا غير معهودة ولا لطف فيها، لا بل هي قاسية، والتي يبدو وكأنّها متناقضة مع الرحمة؟ إذا قرأنا كلّ هذا في ضوء لغة الأنبياء، التي تتضمّن، في الوقت عينه، تحذيرًا وإعلانًا، يمكن أن نرى في أقوال يسوع هذه تدخّلات قلب رحيم، يريد أن يذكّر مستمعيه ويدعوهم إلى فحص ضمائرهم والخروج من كبريائهم وتبرير

ذواتهم، فيفسحوا المجال لنعمة الله كي تغمرهم وتنقيهم. وهذا ما يظهر في أقسى كلماته للفريسيّين والكتبة: "الويل لكم أيها الكتبة والفريسيّون المراؤون، فإنّكم تؤدّون عُشْر النعنع والشمرة والكمّون، بعدما أهملتم اهمّ ما في الشريعة: العدل والرحمة والأمانة. فهذا ما كان يجب أن تعملوا به من دون أن تهملوا ذاك" (متى ٢٣: ٢٣). كما نرى، يعتبر يسوع "العدل والرحمة والعدالة" أنّها أمور يجب العمل بها، لأنّها وصايا الله السامية، وهي قلب كلّ عمل آخر.

ولهذا السبب بالذات، أراد يسوع أن تكون المغفرة قمّة تعبيرنا عن الرحمة. فقد علّم بوضوح، في جوابه لبطرس، أنّ تلاميذه يجب أن يسامحوا "لا سبع مرات، بل سبعين مرة سبع مرات" (متى ١٨: ٢١)، أي دائمًا. يدعو يسوعُ بطرس إلى تجاوز معيار "السبع مرات" (متى ١٨: ٢١) التي تبدو لبطرس مقياسًا واسعًا وسخيًا، لا بل مُفرطًا. يكرّر بوضوح ويجيب بحزم أنّ مقياس المحبة هو أن نحبّ بلا قياس، لأنّ هذا هو المقياس الذي يستعمله الله في تعامله مع الخطاة. أليس هذا هو تعليم يسوع الذي ضمّنه "الصلاة الربية"، حيث نطلب: "أعفنا من خطايانا، فإننا نعْفي نحن ايضا كلّ مَن لنا عليه" (لوقا ١١: ٤)؟ وهذا صدى لتطويبة الرحمة، حيث يعلّم يسوع أنّنا نجتذب مغفرة الآب إذا كنّا قادرين على المغفرة. وبكلمة بسيطة وعميقة، يحثّ يسوع قائلا: "اغفروا يُغفَر لكم" (لوقا ٦: ٣٧). فهو يضع شرطًا: إذا

سامحتَ أنت، يسامحك الله. إذًا، يمكن القول إنّ المغفرة يقابلها وعدٌ بالخلاص والسماء.

أمّا بالنسبة إلى تصرّفات يسوع، فهو لم يرضخ قطّ لضغوطات تلاميذه الذين طلبوا "نارًا من السماء تنزل وتأكلهم" (لوقا ٩: ٥٤) لمن لم يريدوا أن يستقبلوهم ويستمعوا إليهم. فيحدّق يسوع فيهم وينتهرهم: "التفت يسوع وانتهرهما" (لوقا ٩: ٥٥)، كما يشير لوقا في إنجيله. إنّ مواقفه الصامتة أمام أعضاء مجلس الكهنة الذين كانوا يشكونه (راجع متى ٢٦: ٦٣)، وأمام هيرودس الفضوليّ (راجع لوقا ٢٣: ١٩)، وأمام الجنود الذين كانوا يضربونه ويسخرون منه ويجلدونه (راجع لوقا ١٥: ١٦–٢٠؛ يوحنا ١٩: ١)، تشير كلّها إلى رحمته غير المحدودة تجاههم. فالصمت هو تذكير ودعوة إلى ضمير مَن يعتقد أنّه يستطيع أن يسيطر على العالم بالقوّة والسلطة. وحتى عندما قبّله يهوذا الخائن واللئيم، فإنّ يسوع لم يغلق قلبه للرحمة والمغفرة، إذ دعاه "صديقًا" حتى اللحظة الأخيرة (متى ٢٦: ٥٠)، ليبيّن له استعداده للمغفرة وحتى يحرّك أوتار روحه قدر الإمكان. إن صاحب القلب المليء بالرحمة وحدَه يدعو "صديقًا" مَن خانه!

ولكنّ قمّة حبّ يسوع، "وجه رحمة الآب"، وقمّة حبّه الرحيم، تجلّت خصوصًا في ساعات آلامه وموته على الصليب من أجلنا نحن الخطاة. أيُّ قلب لا يتأثّر من كلمات يسوع المُشرف على الموت، والتي يسأل فيها الآب أن يغفر لصالبيه

(حينذاك وفي كلّ زمان ومكان): "يا ابتِ اغفر لهم، لأنّهم لا يعلمون ما يفعلون" (لوقا ٢٣: ٣٤)؟ ويطيبَ لنا أن نفكّر أنّ لفتة الحبّ الرحيم هذه هي التي تأثّر بها لصّ اليمين، فطلب من يسوع أن يذكره في ملكوته، هو الفقير الخاطئ والتائب في هذه اللحظة الحاسمة والأخيرة من حياته (راجع لوقا ٢٣: ٣٩. ٤٣). ويمكن القول ايضًا إنّ هذه الكلمات اخترقت آذان يوحنا ومريم، وبقيت راسخة في ذاكرتهما، على أنّها دليل ونموذج لحياتهما. فمريم ستكون "أمّ الرحمة وملجأ الخطأة"، ويوحنا سيكون رسولَ المحبّة.

أخيرًا، لا يتردّد يسوع في اجتراح المعجزات، عندما يتأثّر من بؤس البشر وتتحرّك أحشاؤه، لا بل يبدو وكأنّه يفضّل أن يأخذ هو نفسه المبادرة لتدخّل عجائبي. إنّ هذا التأثّر ناجم عن قلب رحيم، وعن مشاركته لآلام الناس، وهذا ما يؤدّي إلى الرغبة في تخفيف بؤس البشر، الجسديّ والروحيّ. ليس هذا الشعور عابرًا، ولكنّه مشاركة دائمة، إذ نقرأ في الإنجيل: "رأى الجموع فأخذته الشفقة عليهم لأنّهم كانوا تعبين رازحين، كغنم لا راعي لها" (متى ٩: ٣٦). ولهذا، يرسل عملة إلى حصاده. لهذا، يعلّمهم. لهذا، يشفي المرضى الذين يُقدَّمون إليه (راجع متى ١٤: ١٤؛ ١٥: ٣٠–٣١)، ويعيد الصحة للبُرص (راجع مرقس ١: ٤٢؛ لوقا ١٧: ١١–١٩)، ويكثّر الخبز للجائعين (راجع متى ١٤: ١٥–٢١؛ ١٦: ٣٢–٣٨). إنّ كلمة "أشفق" من الكلمات التي كثيرًا ما

تتردّد في الأناجيل (راجع متى ١٥: ٣٢؛ ١٨: ٢١؛ ٢٠: ٣٤؛ مرقس ١: ٤١؛ ٦: ٣٤؛ ٨: ٢، ألخ).

يشعر يسوع بالشفقة على الأم الأرملة التي تبكي لموت ابنها الوحيد، ومن غير أن تطلب من يسوع أيّ شيء، يبادر هو ويعيد إليه الحياة (راجع لوقا ١٧: ١١–١٧). وقد أشفق أيضا على الغرباء، وذلك عندما استمع، على سبيل المثال، لطلب الفنيقيّة السورية، فشفى ابنها الذي مسّه الشيطان (راجع مرقس ٧: ٢٤–٣٠)، وأيضا عندما شفى، في المدن العشر، الممسوس وحرّره من سلاسل الروح الخبيث في جيراسا، وكلّفه بهذه الرساله: "إذهب إلى بيتك إلى ذويك، وأخبرهم بكلّ ما صنع الربّ إليك وبرحمته لك" (مرقس ٥: ١٩)، وكذلك يمكن النظر إلى معجزة إحياء العازر معجزة إحياء العازر في إطار تعاطف يسوع. فهو يشارك مريم ومرتا اختيه ألمهما وبكاءهما على أخيهما. يذكر الإنجيل مرّتين أنّ يسوع "جاش صدره واضطربت نفسه" (يوحنا ١١: ٣٣. ٣٨)، و"دمعت عينا يسوع" (يوحنا ١١: ٣٥). لقد كان يسوع لجميع هؤلاء وجه الآب الرحيم.

المسيّحون مدعوّون إلى أن "يكونوا رحماء كالآب"

كيف يستطيع المسيحيّون أن يعيشوا الرحمة؟ إذا كان تعريف المسيحي هو مَن يتبع المسيح ويتشبّه به، كما قال هو نفسه: "تعال فاتبعني" (مرقس ١٠: ٢١)، وقال أيضا: "قد جعلتُ لكم من نفسي قدوة لتصنعوا أنتم أيضا ما صنعت إليكم" (يوحنا ١٣: ١٥)، فمن الواضح أنّ المسيحي أيضا مدعوّ إلى عيش الرحمة كما عاشها يسوع. والتعليم الأوضح والمؤثّر في هذا المجال هو مثل السامريّ الرحيم (راجع لوقا ١٠: ٢٩–٣٧). إنّ السامريّ الرحيم، الذي يقدّمه يسوع على أنّه صورة له، وصل إلى الجريح على قارعة الطريق "ورآه فأشفق عليه" (لوقا ١٠: ٣٣). ومن المشاعر ينتقل إلى العمل: يعتني به، ويضمّد جراحه، ويقدّم له الخدمات الأوليّة. ويختم يسوع بدعوة تلاميذه إلى التشبّه بالسامريّ الرحيم: "اذهب فاعمل أنت أيضا مثل ذلك" (لوقا ١٠: ٣٧). ويسوع نفسه سبق وأن قام بالعمل نفسه، إذ انحنى على البشريّة المتألّمة وعالج جراحها. وأيضا، في خاتمة مثل العبد عديم الرحمة، يقول يسوع لكلّ واحد منّا: "فما كان يجب عليك أنت أيضا أن ترحم صاحبك كما رحمتك أنا؟" (متى ١٨: ٣٣).

وباختصار، فقد أعطى يسوع برنامج حياة بقوله: "كونوا رحماء كما أنّ أباكم رحيم" (لوقا ٦: ٣٦). إنّها كلمة تنطبع مباشرة في الذهن ويصعب نسيانها. ولكنّها أيضًا برنامج حياة ليس من المستحيل تطبيقها، لأنّ يسوع لا يطلب المستحيل من الإنسان، بل يؤكّد أنّ "مَن ثبت فيّ وثبتّ فيه فذاك الذي يثمر ثمرًا كثيرًا" (يوحنا ١٥: ٥). إنّ هذه الكلمة "كما" الواردة في لوقا ٦:٣٦، تشير، في الوقت عينه، إلى المسافة غير المحدودة بين الله والانسان، ولكن أيضًا إلى تقرّب الإنسان التدريجيّ من الله، عندما يعقد العزم أن يسير بحزم في طرق الربّ. وهذا ما يشرحه لنا القديس بولس بناء على خبرته الشخصيّة، كما ورد في الرسالة إلى أهل فيلبي: "لا أقول إنّي حصلتُ على ذلك أو أدركتُ الكمال، بل اسعى لعلّي أقبض عليه... أنسى ما ورائي وأتمطّى إلى الأمام، فأسعى إلى الغاية" (فيلبي ٣: ١٢-١٤). في هذه الآية، يعلّمنا كيف نتشبّه بالله من خلال ثلاثة افعال: سعى، ركض، سار نحو الهدف...، التي تشير إلى مسيرة مستمرّة تقود إلى "الراحة الإلهية" (إلى العبرانيين ٤: ٩-١١).

تبقى الرحمة غاية، لا بل الغاية (مع أل التعريف). وما علينا إلا أن نسعى للوصول إليها سعيا حثيثًا، فنصبح أكثر شبهًا بالله. وفي هذا الصدد، يكتب القديس بولس إلى أهل فيلبي داعيًا إيّاهم إلى أن يتشبّهوا بيسوع، حيث يقول: "فليكن فيما

بينكم الشعور الذي هو أيضًا في المسيح يسوع" (فيلبي ٢: ٥)، ويحثّهم بمزيد من الوضوح والصراحة قائلا: "اقتدوا إذًا بالله شأن أبناء أحبّاء" (أفسس ٥: ١). ويتابع خطابه مباشرةً مبيّنا التطبيق العملي، على خطى يسوع: "سيروا في المحبّة سيرةَ المسيح الذي أحبّنا وجاد بنفسه لأجلنا قربانًا وذبيحةً لله طيّبةَ الرائحة" (افسس ٥: ٢). وعلى نفس الخط، يسير القديس يوحنا، رسول الحبّ والرحمة. فبعد أن وصف حبّ الآب لنا بإرساله ابنه من أجل خلاصنا، يختم بنفس المنطق المسيحي، منطق التشبّه، حيث يقول: "أيّها الأحباء، إذا كان الله قد أحبّنا هذا الحبّ فعلينا نحن أن يحبّ بعضنا بعضًا" (١ يوحنا ٤: ١١).

إنّ مثال القدّيسين، وهم بشر مثلنا، ولكنّهم أبطال أكثر منا، يؤكّد لنا أنّه من الممكن أن نكون "رحماء كالآب". فالشهيد المسيحي الأول، القديس اسطفانس، قدّم حياته مُتشبِّها بحبّ يسوع الرحيم، إذ غفر لراجميه، وصرخ بأعلى صوته: "يا ربّ، لا تحسب عليهم هذه الخطيئة" (أعمال الرسل ٧: ٦٠). وبعده، وعلى مثاله، نجد الملايين من الشهداء، المعروفين وغير المعروفين، الذين قدّموا حياتهم للمسيح تحت علامة المغفرة المليئة بالرحمة. من بين الأمثلة المعروفة في أيامنا الحاضرة، يتميّز القديس ماكسيميليان كولبي. لقد مارس هذا القدّيس، طيلة حياته، الرحمة الجسديّة والروحيّة، واختتمها

بأنّ قدّم حياته للآب الرحيم عندما تبرّع، عام ١٩٤١ في معسكر الاعتقال النازي اوشفيتس، بأن يكون بديلا لربّ أسرة بريء وقعت عليه صُدفةً قرعة الموت. فقد طلب من السجّان أن يموت هو عوضًا عنه.

وثمّة الكثير من القديسين، الذين لم يتكبّدوا آلام الاستشهاد الجسدي، ولكنّهم قدّموا لله استشهادهم الروحيّ. يشير البابا فرنسيس، في براءته، إلى "الذين جعلوا من الرحمة رسالتهم في الحياة. ويتّجه الفكر بنوع خاص إلى الرسولة العظيمة للرحمة، القديسة فاوستينا كوفالسكا. فلتشفَعْ لنا هي التي دُعيت للدخول في أعماق الرحمة الإلهية" (رقم ٢٤). ومثال آخر هو القديسة تريزا للطفل يسوع، التي كتبت عام ١٨٩٥ صلاة "تقدمة ذاتها للحبّ الرحيم"، حيث تقول: "كي أتمكّن من العيش في فعل حبّ كامل، أقدّم ذاتي ذبيحةً لحبّك الرحيم، طالبة منك أن أصبح شهيدة حبّك، يا إلهي!".

وثمّة قدّيسون تشبّهوا بقلب يسوع الرحيم، وطلبوا منه أن يُظهر رحمته اللامتناهية تجاه الخطأة، خصوصًا الأبعد والأكثر عصيانًا. على سبيل المثال، الأنبا باسيوس، وهو من أوائل رهبان الصحراء، كان يتوسّل إلى يسوع من أجل يهوذا الاسخريوطي. فظهر له الربّ وقال له: "يا باسيوس، من أجل مَن تُصلّي؟ ألا تعرف أنّه خانني؟". ولكنّ القديس واصل

الصلاة والتألّم من أجل هذا التلميذ الخائن، فقال له الربّ: "يا باسيوس، لقد أصبحتَ مثلي في الحبّ". أمّا القديسة كاترينا السيانيّة، فقد سُمعَتْ يومًا تتلو هذه الصلاة الواثقة والجريئة: "يا ربّ، كيف استطيع أن أكون راضية ما دامت واحدة من هذه النفوس المخلوقة على صورتك ومثالك تهلك أو تفلت من بين يديّ؟ لا أريد لأحد من أخوتي المرتبطين بي بالطبيعة أو بالنعمة أن يهلك. لا أريد أن يُهلكها العدوّ القديم، بل أن تربحها أنت لمدح اسمك وتمجيده. من الأفضل لي أن يخلصوا جميعا وأن أتقبّل أنا وحدي عذاب جهنم (مع الحفاظ على المحبّة)، من أن أكون أنا في الفردوس بينما يكون الجميع في جهنم. أيّ من الحالتين تقدّم لك تمجيدًا أعظم، الأولى أم الثانية؟". فأجابها الربّ: "إن المحبّة لا يمكن أن تكون في جهنم، لأنّ المحبّة تدمّر جهنم. من الأفضل أن ندع جهنم تدمّر ذاتها من أن تكون فيها المحبّة". فقالت عندها: "إذا سمحتْ حقيقتُك وعدلك، أودّ أن أرى جهنم تُدمَّر، أو على الأقل ألا تدخلها من الآن وصاعدًا نفسٌ واحدة. لا أريد أن أفقد محبتك، ولكنّي على استعداد أن أُوضع في فوهة جهنم لكي أغلقها، فلا يدخلها أحد. فهذا ما يرضيني كلّ الرضى، إذ بهذه الطريقة يخلص جميع إخوتي".

الرحمة في أبعادها الاجتماعيّة

سلّطنا الضوء حتى الآن على البُعد الشخصي للرحمة، أي كفضيلة يجب أن يعيشها كلّ مسيحيّ في تعامله مع القريب. ولكن من الأهميّة بمكان، خصوصًا في وقتنا الحالي، أن نبرز أيضًا البُعد الاجتماعي للرحمة، بمعنى أنّ المجتمع نفسه يجب أن يمارس هذه الفضيلة أو هذه القيمة. فللرحمة أيضًا دور في العلاقات المتبادلة في أيّ مجتمع، بين جميع الفئات والشرائح الاجتماعية، ودور أيضًا في العلاقات بين مختلف الشعوب والقارات. وللأسف الشديد، لا بدّ من القول إنّ هذا الجانب من الرحمة ضعيف جدّا اليوم، إذ تسود العالَم ما يدعوه القديس يوحنا "شهوة الجسد وشهوة العين وكبرياء الغنى" (١ يوحنا ٢: ١٦). بكلمات أخرى، تسود قوّة السلطة المتجبّرة، والبحث الأنانيّ عن الغنى، والكبرياء الناجم عن شعور بالاعتلاء الموهوم. إنّ الكتاب المقدّس بأكمله، خصوصًا رسالة الأنبياء وبشرى يسوع ومثله، يكشف كلّ هذه المواقف والتصرفات المنافية للرحمة، ويدعو بإلحاح إلى التشبّه بإله الرحمة، أيضًا في هذا المجال الحيوي من الحياة البشريّة، أي الحياة العامّة.

يتميّز عاموس، وهو أول الأنبياء بحسب العدّ التاريخيّ، بالانتفاض على المظالم وغياب الرحمة التي تتحكّم بالعلاقات

البشريّة، سواء بين أبناء الشعب العبريّ أو على مستوى العلاقات الدوليّة. يقول عاموس: "إنّهم يدوسون رؤوس الضعفاء على تراب الأرض ويُحرفون طريق الوضعاء" (٢: ٧). وهذه المظالم تُفقد الاحتفالات الدينية معناها، التي لم تَعُد وسيلة للقاء الله، بل فرصة للمظاهر وللبحث عن سراب خلاص. وهذا ما يقوله الربّ بوضوح: "لقد أبغضتُ أعيادكم ونبذتها ولم تَطب احتفالاتكم" (عاموس ٥: ٢١). وهنا تأتي الدعوة إلى التوبة وتَغيير الاتجاه: "بل ليَجْرِ الحقّ كالمياه والبرّ كنهر لا ينقطع" (عاموس ٥: ٢٣) وهذا ما يكرّره أيضا سائر الأنبياء، وعلى وجه الخصوص هوشع الذي يورد كلمة الربّ هذه: "فإنّما أريد الرحمة لا الذبيحة، معرفة الله أكثر من المحرقات" (هوشع ٦: ٦).

تذكر الأناجيل أكثر من مرّة أنّ يسوع أعاد إلى الأذهان هذه الآيات، ودائما في الظروف التي كان التناقض يظهر فيها بين مواقفه المليئة بالرأفة والرحمة تجاه بعض الفئات، ومواقف مستمعيه أو مُتّهميه، الذين كانوا يتّهمونه بأنّه قريب من العشّارين والخطأة (راجع متى ٩: ١١؛ لوقا ١٥: ١). ولكنّ يسوع كان يصرّ على الإعراب عن رافته ومحبّته لهذه الفئات الضعيفة والمهمَّشة والمنبوذة والمتّهمة والمحكوم عليها، والتي يعتبر المجتمع أنّها لا تستحق أن نتعامل معها برحمة. فكان يقترب من هذه الفئات ويدافع عنها، وهي الفئات التي لا يعيرها المجتمع أيّ اهتمام: مثل الأطفال (راجع لوقا ١٨: ١٥–

١٧)، والـمُستعطين والمهمَّشين، أمثال برتماوس (راجع مرقس ١٠: ٤٦-٥٢)، والعشّارين والخطاة، أمثال لاوي وزكّا وغيرهم (راجع متى ٩: ٩-١٣؛ لوقا ١٩: ١-١٠)، والبرص والـمُعاقين (راجع لوقا ١٧: ١١-١٩؛ متى ٩: ١-٨)، والأرامل (راجع لوقا ٧: ١١-١٧؛ ٢١: ١-٤؛ لوقا ٢٠: ٤٧)، وحتى البغايا والخاطئات (راجع يوحنا ٨: ١٢؛ لوقا ٧: ٣٦-٥٠). ويجرؤ أيضا على أن يغفر للمحكوم عليهم ومَن هم على منصّة الإعدام (راجع لوقا ٢٣: ٢٩-٤٣).

يقف يسوع في وجه مَن يدّعون أنّهم "طاهرون"، فينزوون عن غيرهم حفاظا على "طهارتهم"، وأيضًا في وجه المجتمع الذي يسوده "رؤساء الأمم" ويتسلّط عليه الأكابر (متى ٢٠: ٢٥)، ويعلّم بصراحة: "فلا يكن هذا فيكم، بل مَن أراد أن يكون الأوّل فيكم، فليكن لكم خادمًا... هكذا ابن الإنسان لم يأتِ ليُخدَم، بل ليخدُم ويفدي بنفسه جماعة الناس" (متى ٢٠: ٢٤-٢٨). يعرف يسوع أنّ التسلّط والقمع والظلم هي تجربة الرؤساء. وهو نفسه تعرّض لهذه التجارب، في بداية حياته العلنيّة، ولكنّه صمد أمام تجارب الشيطان الثلاث: تجربة الغنى والسلطة والمُلك، التي كانت تُعتبَر مفتاح النجاح. إنّ الأمانة لله والخضوع له، وخدمة الإنسان بمحبّة ورحمة، هي وحدَها الكفيلة بأن تخلّص البشرية. ليس من السهل أن يكون المرء على استعداد لقبول تعليم يسوع وتصرفاته، عندما تعتبر العقليّةُ السائدة الخدمةَ والطيبةَ والمغفرةَ والرحمةَ أوراقًا خاسرة ولا تقود إلى النجاح.

الرحمة الإلهية
في اللاهوت وتعليم الكنيسة

أمام هذا الكمّ الكبير من المعطيات الكتابية وممّا عاشه المسيحيّون في مجال الرحمة، ننتظر أيضًا من اللاهوت والتعليم الكنسيّ الرسميّ أن يُخصّصا مُتّسعا أكبر لهذا الموضوع. ولكنّ الحقيقة هي أنّ الرحمة، رحمة الله للبشر ورحمة البشر لبعضهم البعض، كان لها الحظّ الأوفر في الوعظ الرعويّ أكثر ممّا هو عليه الحال في التفكير اللاهوتيّ وتعليم الكنيسة الرسميّ. وعوضًا عن ذلك، كان لهذا الموضوع حظٌّ كبير في خبرة النفوس الصوفيّة، وفي حياة القديسين والقديسات وأعمالهم.

في اللاهوت، وخصوصًا في البحوث حول الله، يتمّ الكلام عن طبيعة الله، وصفاته، وأعماله (الخلق، العناية، الخلاص...)، مع الاتجاه نحو إبراز عدل الله أو التركيز عليه أكثر من إبراز رحمته أو التركيز عليها. وهذا ما ينسحب أيضًا على البحوث المُتعلّقة بيسوع المسيح. عندما نبحث في طبيعته الإلهيّة والإنسانيّة، وأعماله، وألقابه، وأعماله الخلاصية، يتمّ التركيز على القضايا الـمُتعلّقة بطبيعة السيّد المسيح (خصوصا وأنّها كانت موضع خصومات بين الكنائس المختلفة، فكان

همّ كلّ كنيسة أن تدافع عن وجهة نظرها) اكثر من إلقاء الضوء على أسراره الخلاصية، التي كثيرًا ما كانت تُعتبَر أعمالًا تقويّة وتعبُّديّة مرتبطة بالأسرار. وهنا يمكن أن نلاحظ أيضًا أنّ المعاجم اللاهوتيّة والروحيّة، وكذلك الموسوعات الكبيرة، قليلًاما نجد فيها موضوع "الرحمة".

قد يكون من المثُير دراسة أسباب الإهمال النسبي لهذا الموضوع أو على الأقلّ عدم التركيز عليه. قد يكمن السبب في أنّه قد تمّ التركيز على عدالة الله في وجه الخطيئة والشرّ، وعلى صرامة متطلّبات التكفير اللازم، أكثر من التركيز على ترحيب الله الرحيم بالخاطئ التائب. وقد يكمن السبب أيضًا في تأثير بعض الثقافات أو بعض التوجّهات الفلسفيّة، التي لم تكن تعتبر الرحمة قيمة أو فضيلة، بل ضُعفًا لا يليق بالإنسان القويّ والحازم. يركّز الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانت، على سبيل المثال، لا على الكائن الذي تقوده المشاعر، بل على الانسان الذي يقوده الواجب. كذلك الفيلسوف الألماني فريديريك نيتشه، الذي كان يحتقر الرحمة والرأفة ويعتبرهما علامة ضعف. وفرويد، من جهته، كان يقول إنّ وصية محبّة الأعداء عبثيّة، لأنّها مستحيلة. وفي القِدم، كان ارسطو يرى أنّ الرحمة ضعف، وهي صفة الخجولين والمرضى والمُسنين والنساء.

كان البابا يوحنا بولس الثاني يشكو، في رسالته "في

الرحمة الإلهية"، من هذا الإهمال لموضوع الرحمة في الثقافة الحالية، فيقول: "إنّ عقليّة هذا العصر الحاضر تبدو ربّما أشدّ رفضًا لرحمة الله من عقليّة الأجيال السالفة، لا بل إنّها تسعى إلى القضاء على فكرة الرحمة واستئصالها من قلب الإنسان. وإنّ لفظة الرحمة بما لها من مفهوم تبدو وكأنها تزعج الإنسان الذي أصبح اليوم أكثر منه في غابر الأيام سيّدًا أخضع الأرض وتسلّط عليها، بفضل ما أحرز من تقدّم عظيم، لم يُعرف من ذي قبل، في حقل العلوم والتقنية... (وهذا كلّه لم يترك مجالا) على ما يبدو، للرحمة" (رقم ٢٩). ومن الملاحظ أنّ البابا فرنسيس يستشهد بهذا المقطع من رسالة البابا يوحنا بولس الثاني، لكي يدعو المسيحيين إلى مناهضة ثقافة التسلّط وإلى أن يفتحوا قلوبهم لثقافة الرحمة. وفي هذا الصدد، يدعو البابا فرنسيس، في رسالته "كن مُسبَّحا"، جميع الناس ذوي الإرادة الصالحة إلى الرحمة تجاه الخليقة بأسرها (الرقم ٢١٦-٢٢١).

لا نستغربنَّ إذًا ألّا يُفسح التعليمُ الكنسيّ الرسميّ مساحة لموضوع الرحمة إلا في الفترة الأخيرة. منذ بدء استعمال البابوات للرسائل الراعوية بمعناها الحديث حتى البابا فرنسيس (كُتبت ٣٢٧ رسالة راعوية)، لا نجد موضوع الرحمة فيها بشكل صريح أو لا نجده على الاطلاق أو يتمّ فقط التلميح له في بعض الفقرات من دون توسّع. غير أنّ بابوات العصر الحديث

أخذوا يتناولون هذا الموضوع. نتوقّف هنا عند الأخيرين منهم. فالبابا بيوس الحادي عشر (١٨٥٧–١٩٣٩) ركّز على هذا الموضوع، إذ حملت إحدى رسائله عنوان "الفادي الرحيم" (١٩٢٨)، وتناول فيها موضوع التعويض لقلب يسوع الأقدس، وفيها يبرز حبّ الله الرحيم. وخليفته، البابا بيوس الثاني عشر (عام ١٩٥٦) أصدر رسالة بعنوان "استقوا المياه"، وتناول فيها التعبُّد لقلب يسوع الأقدس. يمكن القول إنّ هذا البابا يعود باستمرار إلى موضوع قلب يسوع المطعون بالحربة، وكذلك إلى مفهوم الحبّ الإلهي والرحمة الإلهية، للآب والابن والروح القدس، ويستند في ذلك بشكل واسع إلى المراجع الكتابيّة وإلى النصوص الآبائيّة والليتورجيّة.

وعاد خليفتُه، البابا يوحنا الثالث والعشرون، في كلّ حياته وخصوصًا أثناء حبريّته، إلى مفهوم الرحمة. وما يميّزه هو أنّه لم يتوقف عند العرض اللاهوتي لهذا الموضوع، بل عبّر عنه بالأحرى من خلال مواقفه ومبادراته، التي اتّسمت بالرحمة والطيبة. ففي الخطاب، الذي افتتح به المجمع الفاتيكاني الثاني، تلفّظ بهذه الكلمة التي يمكن اعتبارها برنامج عمل: "في الوقت الحاضر، تفضّل عروس المسيح أن تستعمل أدوية الرحمة على اللجوء إلى وسائل القسوة... تريد أن تظهر أمًّا رؤوفة تجاه الجميع، وديعة، صبورة، تدفعها الرحمة والطيبة،

حتى تجاه أبنائها المنفصلين عنها".

وخليفته، البابا القديس يوحنا بولس الثاني، ولأول مرّة في تاريخ الكنيسة، خصّص رسالة راعوية لموضوع الرحمة. ففي السنة الثالثة من حبريّته، عام ١٩٨٠، أصدر رسالته الراعوية الثانية تحت عنوان "في الرحمة الإلهية"، وفيها يتوسّع بمفهوم الرحمة في العهدين القديم والجديد، مع التركيز بنوع خاصّ على مثل السامريّ الرحيم (رقم ٥–٦)، ويؤكّد أنّ هذه الرحمة تصل ذروتها في السرّ الفصحيّ: "إنّ سرّ الفصح هو قمة هذا الكشف عن الرحمة، وقمّة تحقيقها... فالإيمان بالابن المصلوب، معناه "رؤية الآب" (راجع يوحنا ١٤: ٩)، ومعناه الإيمان بوجود المحبّة في العالم وبأنّ المحبّة أقوى من كلّ شرّ – أيًّا كان نوعه – ينغمس فيه الإنسان والجنس البشري والعالم. والإيمان بالمحبّة من هذا النوع معناه الإيمان بالرحمة" (في الرحمة الإلهيّة، رقم ٧).

امّا البابا بندكتس السادس عشر، فقد عاد إلى موضوع الرحمة في رسالته الراعوية الأولى "المحبّة في الحقّ" (٢٠٠٥)، التي لا تُذكَر فيها كلمة الرحمة صراحةً إلا نادرًا، غير أنّها تتوقف عند تطبيقاتها العمليّة، على أساس أنّ الرحمة هي قمّة التعبير عن المحبّة، لا بل إنّها أختها التوأم. وهنا، يجب القول إنّ الإطار اللاهوتي أساسيّ. فالقسم الأول من الرسالة يبيّن أنّ

كلّ شيء ينبثق عن حبّ الله الثالوثي، وهو الحبّ الذي يتجلّى في "يسوع المسيح، حبّ الله المتجسّد" (رقم ١٢)، الذي يشكّل أسمى صورة مرئيّة لهذا الحبّ. والقسم الثاني يخصّصه البابا لـ "محبّة الكنيسة باعتبارها ظهورًا لمحبّة الثالوث" وباعتبارها "جماعةَ محبّة" (عنوان القسم الثاني وعنوان الرقم ١٩). ويقدّم لنا البابا أمثلة واقعية للحبّ الرحيم: "فرنسيس الأسيزي، أغناطيوس دي لويولا، ويوحنا الله، وكميل دي ليلّي، ومنصور دي بول، ولويز دي مارياك، وجوزيف ب. كوتولينغو، ويوحنا بوسكو، ولويس أوريون، وتريزا دي كالكوتا – ونقتصر على هذه الأسماء"، لأنّهم "أمثلة باهرة للمحبّة الاجتماعيّة في خدمة جميع الناس ذوي الإرادة الصالحة" (رقم ٤٠).

واليوم، يقدّم لنا البابا فرنسيس، مع هذه البراءة "وجه الرحمة" (٢٠١٥)، رسالة راعوية مصغّرة حول الله الرحيم وكيف يجب أن يكون البشرُ رحماء لبعضهم البعض على مثال الله. وفي مسيرة هذه السنة اليوبيليّة حول الرحمة، فإنّ موضوع أيام الشبيبة العالمية، التي سيُحتفل بها في صيف ٢٠١٦ في كراكوفيا (بولونيا)، سيكون التطويبة التي أعلنها يسوع: "طوبى للرحماء، فإنّهم يُرحمون" (متى ٥: ٧).

مَن يتابع حبريّة البابا فرنسيس منذ بدايتها، يلاحظ، في كلماته ولفتاته وأعماله ومبادراته، أنّ موضوع الرحمة ليس

جديدًا في حياته. فمنذ خطابه لدى صلاة "السلام الملائكي"، مباشرةً بعد انتخابه، في السابع عشر من أيار ٢٠١٣، قال: "أن نشعر بالرحمة. هذه الكلمة تغيّر كلّ شيء. وهذا أحسن ما يمكن أن نقدّمه. إنّه يغيّر العالم. إنّ قليلًا من الرحمة يمكن أن يجعل العالم أقلّ برودة وأكثر عدلًا. إنّنا بحاجة إلى أن نفهم جيدًا رحمة الله هذه، هذا الأب الرحيم الصبور". وهذا كلّه ناجم عن خبرته البعيدة، الكهنوتية والأسقفية، التي لخّصها في شعاره الأسقفي "الاتّباع والرحمة". ويقول في براءته إنّ هذه الكلمة استقاها من القديس بيدا، الذي يقول، في تعليقه على حادثة دعوة متى في الإنجيل: "رأى يسوع عشّارًا، وبما أنّه نظر إليه بحبّ رحيم، فذلك نظرًا إلى دعوته، حيث قال له: اتبعني".

بالإضافة إلى كلّ ما ذُكر آنفا حول أهميّة الجانب الاجتماعي للرحمة، يجب القول إنّ البابا فرنسيس يركّز، في الرسائل الراعوية، على هذا الجانب الاجتماعي للرحمة. ففي الرسالتين اللتين أصدرهما حتى الآن، وأيضًا في البراءة حول سنة الرحمة، كثيرًا ما يشدّد على الجانب الاجتماعي للرحمة، خصوصًا في المجالات الملموسة، أي العلاقات بين الفئات، وبين المجتمعات الوطنية، وبين الشعوب. ففي الرسالة الراعوية "فرح الإنجيل"، يعيد التأكيد على تعليم الكنيسة التقليدي، ألا

وهو خيار الفقراء: "بالنسبة إلى الكنيسة، اختيارها الفقراء هو مقولة لاهوتيّة قبل أن تكون ثقافيّة، اجتماعيّة، سياسيّة أو فلسفيّة. الله يمنحهم "رحمته الأولى". لهذا التفضيل الإلهي عواقب في حياة إيمان جميع المسيحيين، المدعوّين إلى أن يكون لهم "من الأفكار ما هو في المسيح يسوع" (فيلبي ٢: ٥). وعلى خطى هذا التفضيل الإلهي، اختارت الكنيسة الفقراء، وهذا ما يظهر بشكل خصوصيّ في أولويّة ممارسة المحبّة المسيحيّة التي يشهد لها كلّ تقليد الكنيسة" (رقم ١٩٨). وهذا لا ينطبق على الكنيسة فحسب، بل يجب أن يصبح معيارًا في العلاقات التضامنيّة بين الشعوب، كما تقول الرسالة "كن مُسبَّحا": "في الأوضاع الحاليّة للمجتمع العالمي، حيث الكثير من عدم المساواة، وحيث يزداد عدد الأشخاص المنبوذين المهمشين، والذين يتمّ تجهاهلم، والمحرومين من الحقوق الإنسانيّة الأساسيّة، يتحوّل الخير العام حالا، كنتيجة حتميّة ومنطقيّة، إلى مناشدة للتضامن وإلى خيار تفضيليّ للأكثر فقرًا... يكفي مجرّد النظر للواقع كي نفهم أنّ هذا الخيار هو الآن شرط أخلاقيّ من أجل التحقيق الفعليّ للخير العام" (رقم ١٥٨).

في البراءة "وجه الرحمة"، يصبح تعليم البابا فرنسيس أكثر وضوحًا، عندما يوجّه دعوة التوبة والاهتداء إلى فئتين من الأشخاص الذين يدوسون الرحمة بأفعالهم ويسمّيهم

بالاسم. "وأفكّرُ بنوع خاص بالرجال والنساء الذين ينتمون لمجموعة إجرامية، أيًّا تكن... لتصل الدعوة نفسها للأشخاص الداعمين أو المتواطئين مع الفساد. إنّ هذه الآفة العفنة للمجتمع هي خطيئة كبيرة تصرخ نحو السماء، لأنّها تهدّد أُسس الحياة الشخصيّة والاجتماعيّة. فالفساد يمنع النظر برجاء إلى المستقبل، لأنّه باستبداده وجشعه، يدمّر مشاريع الضعفاء ويسحق الأكثر فقرا" (رقم ١٩). ومن بين الجرائم الأكثر خطورة في هذا المجال هي المتاجرة بالأشخاص، حيث يتمّ استعباد الرجال والنساء والأطفال واستغلالهم.

إنّ هذا المفهوم للرحمة يجب ايضًا أن يلهم العلاقات بين الشعوب، بين الأمم الغنية والأمم الفقيرة، بين الدول المظلومة والدول الظالمة، بين الدول المستغلّة والدول المستغَلّة. والقضية هنا ليست مجرّد قضية تنازل، بل إنّها قضية كرامة إنسانية مشتركة. وهذا ما يجب أن يدعو إلى الحوار والمصالحة والسلام ومقاسمة الخيرات واستقبال المهاجرين، وطلب المغفرة للمجازر المُرتكَبة... للأسف الشديد، لا نزال بعيدين عن هذا المفهوم الأسمى للرحمة الشاملة.

الرحمة تجاه كلّ الخليقة

عندما خلق الله الكون، أظهر حبّه لكلّ الخلائق. وهذا ما يعبّر عنه هذا المقطع من الكتاب المقدّس بشكل رائع: "فإنّك تحبّ جميع الكائنات ولا تمقت شيئًا ممّا صنعت. فإنّك لو أبغضت شيئا لما كوّنته. وكيف يبقى شيءٌ لم ترضْه أم كيف يُحفظ ما لم تَدَعْه؟ إنّك تشفق على كلّ شيء، لأنّ كلّ شيء لك ايّها السيّد المُحبّ للحياة" (الحكمة ١١: ٢٤-٢٦). وهذا يعني أنّ الله أقام علاقة بينه وبين جميع الكائنات وبين الكائنات نفسها. وبالتالي، فإنّ أيّة علاقة للإنسان هي علاقة رباعيّة: مع الله، مع الذات، مع سائر البشر، مع جميع الخلائق الحيّة وغير الحيّة. "وهذا يحملنا على القناعة بأنّنا جميعًا، خلائق الكون، لكوّننا خُلقنا من قِبَل الآب نفسه، فإنّا متّحدون بربط غير مرئية، وأنّنا نكوّن نوعاً ما أسرة عالميّة" (كُن مسبّحا، رقم ٨٩). "إنّ كلّ شيء هو مترابط، وإننا جميعنا، نحن البشر، متّحدون كإخوة وأخوات في مسيرة حجّ رائعة، ومرتبطون بالمحبّة التي يكنّها الله لكلّ من خلائقه والتي تجمعنا فيما بيننا، بعطف مُحبّ، مع أختنا الشمس، وإخينا القمر، وأخينا النهر وأمّنا الأرض" (رقم ٩٢).

إنّ هذا الرابط الكونيّ له تداعيات منطقيّة على مسؤولية

الإنسان، وهو الخليقة التي حباها الله بالعقل والإرادة، للعمل على الحفاظ على الخليقة والاعتناء بها. ونلاحظ في الكنيسة بشكل متزايد هذا الإحساس، وهو ليس فقط إحساس جماليّ وشعريّ وعاطفيّ غامض، بل قيمة مسيحيّة حقيقيّة وأصيلة. وهذا ما يعبّر عنه البابا فرنسيس بوضوح: "إن عيش دعوتنا كحرّاس لعمل الله هو جزء أساسيّ من حياة فاضلة، وهذا الأمر ليس باختياريّ ولا بثانويّ في الخبرة المسيحية" (رقم ٢١٧). وهذا كلّه يدفعنا واقعيًّا، من جهة، إلى الاعتراف بأخطائنا وخطايانا وعيوبنا وإهمالاتنا في هذا المجال، ومن جهة أخرى، إلى التوبة بكلّ قلوبنا، وتغيير أنفسنا من الداخل، بحيث نعيش فضيلة الرحمة أيضا تجاه الخلائق غير البشريّة. وهذا ما يتطلّب منّا أن ننمي فينا خلقيّة البيئة، فنتبنّى أسلوب حياة ومواقف تحترم البيئة، لخيرنا ولخير غيرنا ، ونعمل على تنشئة المجتمع في هذا المجال، في الأشياء الصغيرة وفي الأشياء الكبيرة. هذه هي حضارة المحبّة، وفق تعبير البابا بولس السادس، والتي يقول عنها البابا فرنسيس: "تدفعنا المحبّة الاجتماعيّة إلى التفكير في الاستراتيجيات الكبيرة التي تضع حدًّا فعّالًا للتدهور البيئي وتشجع على ثقافة الاعتناء التي تشمل المجتمع بأكمله" (كُن مُسبّحا، رقم ٢٣١).

وفي هذا المجال أيضا، يسوع هو المثال. إنّه يتحدّث، قبل

كلّ شيء، عن محبّة الآب لكلّ خليقة، ويعطي مثل العصافير: "أما يباع خمسة عصافير بفلسين، ومع ذلك فما منها واحد ينساه الله" (لوقا ١٢: ٦). ويسوع نفسه عاش في تواصل مستمرّ مع الطبيعة والعناية بها، والمساهمة أيضا في تطويرها من خلال عمله كنجّار (راجع مرقس ٦: ٣). يمكّننا القول إنّه يحاور الطبيعة، ويوليها اهتمامه، ومنها يستمدّ عناصر كثيرة في أمثاله الرائعة. فهو ينظر إلى الحقول باندهاش عندما تكون جاهزة للحصاد (راجع يوحنا ٤: ٣٥)، ويأخذ من حبّة الخردل صورة ليصف نموّ الكنيسة (راجع متى ١٣: ٣١-٣٢)، ويذكر الكرمة والأغصان ليصف وحدته مع تلاميذه (راجع يوحنا ١٥: ١-٨)، وعند االضرورة يأمر الرياح والبحر (راجع متى ٨: ٢٧)، ويستلهم الرعاة وقطعانهم ليصف جمال الحياة معه أو مخاطر الابتعاد عنه (راجع يوحنا ١٠: ١-١٧؛ لوقا ١٥: ٤-٧)... بكلمة، يعيش يسوع في تناغم مع الخليقة. إنّ مخطّط الله هو "أن يصالح به ومن أجله كلّ موجود" (قولسي ١: ٢٠).

"قدّيسون جعلوا الرحمة رسالة حياتهم"

وردت هذه الكلمة في براءة البابا (رقم ٢٤). إنّ جميع القدّيسين والقدّيسات، على مرّ تاريخ الكنيسة الطويل، عاشوا بعمق رحمة الله وبشّروا بها من خلال حياتهم. ولكنّ بعضهم تميّزوا بالرحمة بشكل خاصّ، بحيث يمكن أن ندعوهم "قدّيسي وقدّيسات الرحمة". وهنا يمكن أن نميّز بين فئتين من هؤلاء القدّيسين: أولئك الذين عاشوا في الخفاء والصلاة، وأولئك الذين عاشوا في المجتمع بين الناس. وكلّهم، في نظر الربّ، كانوا شهودًا لحبّه ورحمته تجاه الفقراء من أيّ نوع أو في أيّ وضع كانوا. وكلّ الناس، مؤمنون وغير مؤمنين، ومسيحيون وغير مسيحيين، آجلا أم عاجلا، بشكل علنيّ أو بصمت، يعترفون بأنّ عملهم ترك إرث خير في البشرية.

نلقي نظرة، قبل كلّ شيء، على الذين عاشوا في المجتمع، بين الناس، أيّ قديسي الرحمة الذي عبّروا عن رحمتهم بأعمال ملموسة، وجعلوا رحمة الله مرئية من خلال أعمالهم وحياتهم. ليس بالامكان ذكرهم جميعًا لأنّ عددهم أكبر من أن يُحصى. ولكنّنا، على الأقلّ، نذكر بعض الشخصيّات التي يعرفها الجميع وهي حاضرة في الذاكرة الجماعية. نفكّر أولا بالقدّيس فرنسيس الاسيزي (١١٨١-١٢٢٦)، قدّيس الطيبة

والحنان والمحبّة الشاملة. في رسالته "كن مُسبَّحا"، يصفه البابا فرنسيس بهذه الكلمات: "لقد أظهر اهتمامًا خاصًا بخليقة الله وبالـمُهمَلين أكثر، وبالأكثر فقرًا، كان يحبّ وكان محبوبًا بسبب فرحه، وتفانيه السخيّ، وعالميّة قلبه. كان متصوّفا ومتجولًا يعيش ببساطة وفي انسجام رائع مع الله، ومع الآخرين، ومع الطبيعة، ومع ذاته. فيه نشعر إلى أيّ حدّ يصعب الفصل بين الاهتمام بالطبيعة، والعدالة تجاه الفقراء، والالتزام في المجتمع، والسلام الداخلي" (رقم ١٠). ونذكر أيضا نقولا دي فلو (١٤١٧–١٤٨٧)، الذي عرف كيف يصالح مختلف شعوب سويسرا ليجعل منهم شعبا واحدًا. بصلاته، وحضوره المؤثّر، وسلامه الداخلي الذي كان يستقيه من استسلامه لله، جعل الجماعات المتنافسة والمنقسمة بسبب المصالح الاقتصادية والسياسية أن يقبل بعضهم بعضًا ويعيشوا متضامنين. وقد دعاه الجميع "الأخ كلاوس". ونذكر ايضًا هذه الشخصيّة الكبيرة، القدّيس منصور دي بول (١٥٨١–١٦٦٠)، المدعوّ "أب الفقراء". لقد كان الناطق باسم حقوق المتواضعين أمام الأقوياء، ومدّ يد العون للجميع: المرضى، المتروكين، الأيتام، الـمُسنّين، والـمُصابين بشتى أنواع البؤس. وكيف لا نذكر الطوباوية الأم تريزا من كالكوتا (١٩١٠–١٩٩٧)، مرسَلة المحبّة التي لا تكلّ، والتي حرّكت مشاعر الملايين من البشر، مسيحيين وغير مسيحيين، لعملها الرائع واستقبالها ورحمتها

للجميع. ولماذا لا ننهي هذه الأمثلة بذكر الطوباوي اوسكار روميرو (١٩١٧–١٩٨٠)، الذي قُتل بينما كان يحتفل بذبيحة القدّاس، وذلك لأنّه كان يدافع عن الفقراء والمظلومين وكان يدين العنف الذي كان يمارسه الأقوياء تجاه السكان الفقراء؟

والآن، نلقي نظرة خاطفة على قدّيسي وقدّيسات الرحمة الذين عاشوا في الخفاء، والذين، مع ذلك، كان لهم أهميّة في تاريخ الكنيسة، لأنّ الله الرحيم كلّفهم، في مكاشفات خاصّة، برسالة معيّنة. قد أراد يسوع، من خلال ظهوراته لبعض القدّيسين والقدّيسات، أن يختار هؤلاء ليكونوا رُسل رحمة الله وشهودًا لها. ولقد اعترفت الكنيسة ببعض هذه المكاشفات الخاصة. وفي هذا الخصوص، يجب التذكير بأنّ هذا الوحي الخاص أو المكاشفات الخاصّة "ليس من شأنه أن "يحسّن" أو "يكمّل" وحي المسيح النهائي، بل أن يساعد على الحياة فيه بطريقة أوفى في مرحلة من مراحل التاريخ. وبقيادة سلطة الكنيسة التعليمية يعرف حسّ المؤمنين أن يميّز ويقبل ما يكوّن في حالات الوحي هذه دعوة صحيحة للكنيسة من المسيح أو قدّيسيه" (تعليم الكنيسة الكاثوليكيّة، رقم ٦٧). وفي هذا المجال، نتوقف عند وحيين خاصّين في القرون الأخيرة، قبلهما حسّ المؤمنين وانتشرا في العالم كلّه.

الأول يتعلّق بظهورات يسوع للقديسة مرغريت ماري

الاكوك (١٦٤٧–١٦٩٠)، التي دخلت في رهبنة الزيارة في باريس، والتي حباها يسوع بظهورات عدّة ومكاشفات: فقد أظهر لها يومًا قلبه الأقدس وقال لها: "هذا هو القلب الذي طالما أحبّ البشر وغمرهم بكلّ أنواع النعم ومقابلَ حبّه اللامحدود لم يجد عرفان الجميل، لا بل، بالعكس، وجد النسيان واللامبالاة والإهانات". وفي الظهورات اللاحقة، وبغية دفع المؤمنين على قبول حبّه ومقابلته بحبّ مماثل، فقد عدّد يسوع أثني عشر وعدا، يتضمّن كلٌّ منها منافع مُحدّدة، يمنحها قلبه الإلهي لجميع الذين سيتوجهون إليه ويكرمون صورة قلبه الأقدس. من هذه المنافع ما يتضمن بوضوح كلمة "الرحمة". يقول في الوعد السادس: "سوف يجد الخطأة في قلبي منبع وبحر الرحمة اللامحدود". وفي الثاني عشر: "إنني أعد، وأنتِ إعلنيه للناس، أنّ فيض رحمة قلبي وحبّي القادر على كلّ شيء سيمنح كلّ الذين يتناولون القربان الأقدس في أول يوم جمعة من الشهر لمدة تسعة شهور متتابعة، نعمة الثبات الأخير. فلن يموتوا بدون النعمة وبدون أن يقبلوا الأسرار المقدّسة، إذ سيكون قلبي ملجأ أكيدًا لهم في هذه الساعة الأخيرة". إنّ هذا الوعد الأخير يُدعى أيضًا "الوعد الكبير"، لأنّه يكشف بشكل خاصّ عن رحمة الله غير المحدودة تجاه البشرية.

بعد التحفّظات الأوليّة حول مثل هذه المكاشفات والتي يمكن تفهّمها، من جانب المسؤولين والسلطات الكنسية،

بخصوص مصداقيّتها، ومضمونها، ومتطلّباتها، ووعودها، جاء الاعتراف بها شيئًا فشيئًا بشكل رسميّ، أولا من قِبَل الرؤساء الكنسيّين المحليّين، ومن ثمّ من قِبَل السلطة العليا في الكنيسة، أي الحبر الأعظم.

أمّا المكاشفات الخاصة الثانية المُتعلّقة بالرحمة الإلهية والتي نتوقف عندها، فترتبط بالقديسة البولونيّة فوستينا كوفالسكا (١٩٠٥–١٩٣٨)، والتي يذكرها البابا فرنسيس في براءته. إنّ الكثير من معلومات حياتها والظهورات والمكاشفات التي حظيت بها، ذكرتها هي نفسها في "يومياتها"، التي تحمل عنوان "الرحمة الإلهية في نفسي". لقد اختارها يسوع لتكون رسولة الرحمة الإلهيّة، كما نقرأ في يومياتها، ويدعوها "سكرتيرة الرحمة الإلهية". في إحدى الظهورات، وذلك يوم نذورها الأولى المؤقتة، رأت يسوع، فسجّلت في يومياتها ما يلي: "في المساء، بينما كنتُ في غرفتي، رأيت يسوع وهو يرتدي ثيابًا بيضاء، بيد يبارك وبالأخرى يلامس الثوب على صدره، حيث انبثق شعاعان، الواحد أحمر والآخر شاحب... فقال لي يسوع: ارسمي هذه الصورة بحسب النموذج الذي ترين مع الكتابة تحتها: يا يسوع، إني اثق بك! أرغب في أن تُكرَّم هذه الصورة أولا في مصلّى ديرك، ومن ثمّ في العالم بأسره. أعِدُ مَن يكرّم هذه الصورة أنّه لن يهلك".

وبعد ظهور آخر، وقع في الرابع والعشرين من أيلول عام ١٩٣٦، تسجّل هذه الرائية الصوفيّة في يوميّاتها هذا الطلب من يسوع: "يا بنيّتي، كلّمي العالم بأسره عن رحمتي التي لا يمكن سبْرُ غورها. أرغب في أن يكون عيد الرحمة يومَ تكفير وملجأ لكلّ الأنفس، خصوصًا الخطأة المساكين". وبعد أن ظهر مرات أخرى للراهبة القديسة، أشار يسوع نفسه إلى اليوم الليتورجي للعيد (أي الأحد الذي يلي عيد الفصح)، والدافع إليه وهدفه، وطريقة الإعداد له والاحتفال به، وكذلك النعم المرتبطة به. لاختيار الأحد الذي يلي عيد الفصح معنى لاهوتيّ عميق، إذ يشير إلى الارتباط الوثيق بين السرّ الفصحي وعيد الرحمة. تقول القدّيسة فوستينا في يومياتها: "الآن أرى أنّ عمل الفداء مرتبط بعمل الرحمة التي يطلبها الربّ".

أرادت العناية الإلهيّة، في تدبيرها السرّي، أن يكون البابا البولونيّ الأول في تاريخ الكنيسة، القديس يوحنا بولس الثاني (١٩٢٠–٢٠٠٥) ، هو الذي أعلن قداسة الأخت فوستينا كوفالسكا، في السنة المقدّسة لعام ٢٠٠٠. وفي هذه المناسبة، قرّر أن يكون الأحد الثاني من الزمن الفصحي ("الأحد الجديد") عيد الرحمة الإلهية، بناءً على طلب العديد من المؤمنين في العالم كلّه.

مريم أمّ الرحمة

في مخطّط الله الخلاصيّ، لمريم العذراء علاقة فريدة بالرحمة الإلهيّة. فهي، في الوقت عينه، أسمى خليقة عبّر الله من خلالها عن رحمته اللامتناهيّة وأودعها فيها، وهي أيضًا أسمى خليقة عاشت الرحمة الإلهية وعبّرت عنها في حياتها. إنّ الجانب الأول يتجلّى لنا في مشهد البشارة. عندما سلّم عليها ملاك الله ودعاها "الممتلئة نعمة" (لوقا ١: ٢٨)، وأضاف: "لقد نلت حظوة عند الله" (لوقا ١: ٣٠)، فقد عرّفها على أنّها المرأة التي وضع الله فيها كلّ رضاه وحبّه وايضا كلّ رحمته، لأنّه اختارها منذ الأزل لتكون أمّ يسوع، كلمة الله المتجسّد، الوجه المنظور لرحمة الله غير المنظورة. أمّا الجانب الثاني، واعتمادًا على إشارات الأناجيل القليلة، ولكن الدّالّة، نستطيع القول إنّها كانت أسمى نموذج بشريّ للرحمة عاشته خليقة بشريّة، لأنّها كانت تلميذة ابنها الأكثر أمانةً له والأكثر شبهًا به.

بجوابها السامي على بشرى الملاك: "فليكن لي بحسب قولك" (لوقا ١: ٣٨)، وضعت مريم نفسها تحت تصرّف التدبير الخلاصيّ، الذي صمّمه حبّ الله الرحيم. ها هي تجدّد صراحة هذا الاستعداد وتظهره، في نشيدها "تعظّم" حيث تقول:

"ورحمته من جيل إلى جيل للذين يتّقونه" (لوقا ١: ٥٠). لقد شهدت أجيالٌ قبلَها لهذه الرحمة الإلهية، خاصّة في العهد القديم، وأجيال كثيرة بعدَها، ومن بينهم نحن أيضا ومَن سيأتون بعدَنا. وبالتالي، فهي الخليقة التي أحبّها الله ومنحها نعمته، والتي تشهد بامتياز لحبّ الله الرحيم. لذلك "سوف تهنّئني جميع الأجيال" (لوقا ١: ٤٨). وهنا لا بدّ من التنويه إلى أنّ الرحمة الإلهيّة قلبت الموازين: فالله يشتّت "المتكبرين" ويحطّ "الأقوياء عن العروش" ويرفع "الوضعاء"، ويشبع "الجياع من الخيرات" (لوقا ٢: ٥٢-٥٣). وهذه الكلمات هي عينها التي سيعلنها يسوع على الجبل في التطويبات الإنجيلية، حيث يقول إنّ الرحماء يُرحمون (راجع متى ٥: ٧).

كانت كلمات يوحنا بولس الثاني شديدةَ العمق في هذا المجال: "مريم هي إذن تلك التي عرفت معرفة عميقة سرّ الرحمة الإلهيّة، وعرفت أيضًا ما له من ثمن وأدركت كم هو عظيم. وإنّنا، بهذا المعنى، ندعوها أمّ الرحمة وسيّدة الرحمة أو أمّ الرحمة الإلهية. ويتضمّن كلٌّ من هذه الألقاب معنى لاهوتيًّا عميقًا، لأنّها تُعرب عن استعداد نفسها وذهنها وشخصها بكامله استعدادًا خاصًّا لاكتشاف هذه الرحمة – أولًا من خلال ما جرى لاسرائيل من أحداث مُعقَّدة ثمّ من خلال الأحداث التي تتأتّى لكلّ من الناس ولكلّ الناس – التي

صار الاشتراك فيها من "جيل إلى جيل"، وفقا لقصد الثالوث القدس منذ الأزل" (في الرحمة الإلهيّة، رقم ٩). وبطريقة مشابهة، يشدّد البابا فرنسيس قائلًا إنّ "كلّ شيء في حياتها قد طُبع بحضور الرحمة التي صارت بشرًا. إنّ أمّ المصلوب القائم من الموت قد دخلت معبد الرحمة الإلهية لأنّها شاركت بعمق في سرّ محبّته... لقد حفظت في قلبها الرحمة الإلهية بتناغم كامل مع ابنها يسوع" (رقم ٢٤).

ومريم، الممتلئة من النعمة والرحمة الإلهية، تعيش هي نفسها هذه الرحمة، ومن ثمّ تفيضها على جميع الخلائق. مَن لا يرى في ذهابها "مسرعة" إلى بيت قريبتها المسنّة اليصابات، بادرة حبّ في غاية الجمال والرأفة والرحمة؟ (راجع لوقا ١: ٣٩-٤٥). وبطريقة مشابهة، يبيّن حضورها في عرس قانا الجليل كلّ مشاركتها، ليس في فرح العروسين فحسب، بل أيضا في اهتمامها وانزعاجها لنقص الخمرة. وبكلّ ما فيها ما رأفة وإحساس أموميّ ورحمة، تتدخّل وتتوسّل إلى ابنها يسوع من أجل المُحتفلين (راجع يوحنا ٢: ١-١١). وفي حياة يسوع العلنيّة، مع أنّ حضورها فيها خفيف الظلّ، فإنّها تسعى إلى أن تكون قريبة من ابنها بقلب أموميّ (راجع مرقس ٣: ٣١). أمّا اللحظة الأسمى لهذه المشاركة والرأفة والرحمة، فتعيشها مريم بجانب ابنها المصلوب على الجلجلة. في هذا المشهد

بالذات، يسوع يوكل إليها الرسالة بأن تكون أمّ الحياة، أمّ يوحنا، ومن خلاله، أمّ جميع المؤمنين، لا بل أمّ جميع البشر. هنا، تُكلَّل "سلطانة الرحمة"، وكأنّها تقبل إكليل شوك يسوع. إنّ السيف الذي اخترق قلب يسوع على الصليب، اخترق أيضا قلبها، وفق نبوءة سمعان الشيخ: "وأنت سينفذ سيف في نفسك" (لوقا ٢: ٣٥). لذلك، فإنّها تبقى الآن وبعد أن نُقلت إلى السماء وكُلِّلت بالمجد، "سلطانة الرحمة" والحبّ لجميع الذين يلجأون إليها. فالكنيسة تشهد، في المجمع الفاتيكاني الثاني، أنّها، وقد نُقلت إلى السماء بجانب ابنها، أصبحت بحبّها الأموميّ "عينًا ساهرة على إخوة ابنها الذين لم ينتهِ شوطهم بعد، وإنّما يعانون وطأة المشاقّ والمحن إلى أن يبلغوا الوطن السماوي" (الكنيسة، رقم ٦٢).

من أجل كلّ ذلك، يطيب للشعب المسيحي أن يدعوها، من بين جميع ألقابها، "أمّ الرحمة". والبابا يوحنا بولس الثاني ألحَقَ هذا اللقب بطلبة مريم العذراء عام ١٩٨٣. وأيضًا، في الليتورجيا المجدّدة، يجمع الكتاب الخاصّ بقداديس مريم العذراء ٤٦ صيغة للقداديس التكريميّة المريمية، ومنها أيضًا قُدّاس "مريم العذراء، سلطانة وأمّ الرحمة". وهذا ما جعل دانتي، الشاعر الأيطالي الكبير، أن يضع على شفتي القديس برناردس، محبّ العذراء، هذه الكلمات: "مريم، فيكِ الرحمة،

وفيكِ التقوى، وفيكِ العظمة، فيكِ يجتمع كلّ ما في الخليقة من صلاح" (الفردوس، نشيد ١٣: ١٩).

وقد تكون قمّة التقوى الشعبيّة وحسّ المؤمنين بخصوص قلب مريم الرحيم هي ما يأتينا من التقليد الاثيوبيّ المسيحيّ، إذ ترسخ بعمق في قلب الاثيوبيين المسيحيّين القناعة بالعهد الخاصّ بين مريم العذراء والخطأة، وهو المدعوّ "عهد الرحمة". في العقليّة الاثيوبية، يشكّل هذا العهد نوعًا من "العهد الثالث" في التدبير الخلاصيّ للجنس البشريّ، وهو عبارة عن وعد خاصّ قطعه يسوع مع امّه على الجلجلة (حيث كانت تتردّد لتصلّي بعد موت يسوع)، وبموجبه يتعهّد المسيح "بالخلاص الدائم لكلّ الذين يتوسّلون باسمها (اسم مريم) ويحتفلون بذكراها". ولهذا السبب، تقول مريم في نشيد "تعظم" إنّ "رحمته من جيل إلى جيل" (لوقا ١: ٥٠) ولجميع الشعوب. إنّها رحمة لامتناهية لا تغيب. ولن تكون السماء سوى التغنّي بمراحم الربّ: "بمراحم الربّ للأبد أتغنّى" (مزمور ٨٩: ٢).

الفهرس

البراءة "وجه الرحمة": الرحمة في قلب اللاهوت	٣
"إن محبّة الله أُفيضت في قلوبنا" (رومة ٥: ٥)	٨
الكتاب المقدّس هو قصّة حبّ الله الرحيم	١١
يسوع هو وجه الآب الرحيم ومعلّم الرحمة ونموذجها	١٧
المسيحيّون مدعوّون إلى أن يكونوا رحماء كالآب	٢٥
الرحمة في أبعادها الاجتماعيّة	٣٠
الرحمة الإلهيّة في اللاهوت وتعليم الكنيسة	٣٣
الرحمة تجاه كلّ الخليقة	٤٢
"قدّيسون جعلوا الرحمة رسالة حياتهم"	٤٥
مريم أمّ الرحمة	٥١